الأحوال الاجتماعية لمدينة فاس فى الربع الأخير من القرن السادس عشر

فى ضوء كتاب (أفريقيا) لكاربخال

د. خالد مكرم فوزى

أستاذ مساعد كلية الآداب – جامعة بنى سويف

khaledfawezy77@gmail.com

ملخص:

يُعد كتاب (أفريقيا) للرحالة الإسبانى مارمول كاربخال (Marmol Karvajal) واحداً من أهم المؤلفات التى كُتبت عن أفريقيا عامة والمغرب الأقصى خاصة خلال الفترة (١٥٧٣-١٥٩٩) حيث شمل معلومات تاريخية وجغرافية مهمة، بالإضافة إلى الإشكاليات الكبيرة التى طرحها.

ومن ناحية أخرى فأن كتب الرحالة تُعد واحدة من أهم المصادر التاريخية والجغرافية خلال تلك الفترة الزمنية، هذا بالإضافة إلى أن الدراسة رصدت الأوضاع الاجتماعية بأحد أهم مدن المغرب العربى في فترة زمنية سابقة قبل احتدام الصراع الأوروبى الاستعمارى على القارة الأفريقية عامة وعلى شمال أفريقيا خاصة؛ ويمكن اعتبار تلك الفترة ودور كاربخال مقدمة من مقدمات الغزو والاستعمار الأوروبى للعالم العربى والقارة الأفريقية.

وعلى العموم فإن كتاب أفريقيا لكاربخال يبقى مع ذلك مفيدًا للباحثين فى جغرافية أفريقيا وتاريخها فى القرن السادس عشر، كذيل مكمل لكتاب الحسن الوزان، لما سجله من أحداث ووصف لمواقع لم يقف عليها غيره.

وستحاول هذه الورقة البحثية تتبع ورصد الأحوال الاجتماعية لمدينة فاس فى ضوء مشاهدات كاربخال للمدينة خلال هذه الفترة، حيث مكث فى المغرب الأقصى قرابة سبعة أعوام، وقد ساعده في تدوين مشاهداته تعلمه اللغة العربية والبربرية؛ لذا رصد الكثير من الجوانب الاجتماعية، ومنها الشرائح الاجتماعية للمجتمع الفاسى، والتفاوت فيما بينهم فى اللباس والمسكن والطعام، وأهم الأسواق والحرف فى فاس خلال القرن السادس عشر، والمنشآت ذات الصبغة والدلالة الاجتماعية مثل (المساجد- البيمارستانات- الحمامات- المقابر- الفنادق)، وما انتشر داخل المجتمع فى فاس من أعمال السحر والشعوذة وبعض الخرافات، ثم نظام التعليم فى فاس. وستدور محاور هذه الورقة حول مجموعة من النقاط التالية وهى:-

أولًا- الطبقات الاجتماعية واللباس والمسكن فى فاس.

ثانيًا- المنشآت العمرانية الاجتماعية والأسواق والحرف.

ثالثاً- العرافون والسحرة والمشعوذون بفاس.

رابعًا- التعليم فى مدينة فاس.

كلمات مفتاحية :

فاس- الأحوال الاجتماعية – كربخال

مقدمة :

يُعد كتاب (أفريقيا) للرحالة الإسبانى مارمول كاربخال (Marmol Karvajal) واحداً من أهم المؤلفات التى كُتبت عن أفريقيا عامة والمغرب الأقصى خاصة خلال الفترة (١٥٧٣-١٥٩٩) حيث شمل معلومات تاريخية وجغرافية مهمة، بالإضافة إلى الإشكاليات الكبيرة التى طرحها.

ومارمول كاربخال هو سائح ومؤرخ إسباني ولد بغرناطة فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى، وخرج من مسقط رأسه وهو حديث السن فسار فى جيش الإمبراطور شارلكان الذى غزا تونس سنة ١٥٣٥م[١]، وحضر احتلال هذه المدينة وما جرى فيها من أعمال السلب والنهب وهتك الأعراض وتدنيس الحرمات، وبعد مغادرة الأسطول الإمبراطورى لتونس بقى مارمول فى شمال أفريقيا يقوم بمهمة كلفه بها شارلكان[٢]، وطال مقامه فى هذه البلاد نحو اثنتين وعشرين سنة أُسر خلالها من طرف الشرفاء السعديين، وبقى عندهم أسيرًا سبعة أعوام وثمانية أشهر، يسير فى ركابهم أينما ساروا عبر بلاد السوس الأقصى والصحراء وفى منطقتى فاس وتلمسان، وغير ذلك من الجهات التى تقلبوا فيها[٣].وتبرهن تلك الظروف التي مر بها كاربخال على حنقه وسخطه على المجتمع الإسلامي عامة، ومجتمع فاس موضوع الدراسة على وجه التحديد

ولقد عاصر كاربخال ثلاثة من ملوك السعديين وهم أحمد الاعرج، ومحمد المهدى الشيخ، وعبد الله الغالب، ووصف مارمول كربخال وصف الشاهد العيان؛ حربهم وسلمهم وخلافهم ووفاقهم، وأفراحهم وأتراحهم، وبخاصة علاقاتهم بمنافسيهم من الوطاسيين ملوك فاس، وأتراك الجزائر[٤].

والسؤال الذى يطرح نفسه ما هى المهمة التى كلف بها الإمبراطور شرلكان كاربخال فى أفريقيا ؟؟ ولعل مقامه الطويل، وتنقله المستمر فى أفريقيا، وتعلمه اللغة العربية والبربرية، بالإضافة إلى ما تعرض له من سجن وأسر[٥]، يدل بصريح العبارة على أن الأمر يتعلق بالجاسوسية واستخبار أحوال البلاد الإسلامية وخاصة فى شمال أفريقيا، وذلك لتحقيق أمنية بطانة الكنيسة فى الإجهاز على الدول الإسلامية جنوب البحر المتوسط، وإحلال المسيحية محلها بعد مرور ما يقرب من قرن على إجلاء المسلمين من الأندلس. وما يؤكد افتراض جاسوسية كاربخال، ما أدلى به الراهب الأسبانى فيرناندو دى كونطرايراس -والذى زار فاس خلال عامى ١٥٣٩-١٥٤٠م- من

معلومات مهمة عن أحمد الأعرج ومحمد المهدى الشيخ الأخويين السعديين، وأمور أخرى فى غاية الدقة والسرية، فمن أين كان لهذا الراهب القادم من شبة جزيرة أيبيريا (الأندلس) أن يحصل على معلومات وأسرار عن أقصى جنوب المغرب إن لم يكن كاربخال ومن على شاكلته دور فى تسريب مثل هذه المعلومات(٦).

أما عن **منهج** كاربخال فى كتابه (أفريقيا)، فقبل أن يبدأ مارمول فى الشروع فى الكتابة عكف على تعلم اللغة العربية والبربرية التى تمكن بواسطتها من جمع معلومات تاريخية وجغرافية عن بلاد المغرب، وبعد حصوله على حريته بعد الأسر قام بتأليف كتابه أفريقيا(٧). واعتمد مارمول فى كتابة مؤلفه هذا على كتاب (وصف أفريقيا) للحسن الوزران، ونسج على منواله، بل اقتفى أثره حذو النعل بالنعل، ونقل منه فصولا كثيرة حرفًا بحرف(٨). كما اعتمد مارمول على بعض الكتب أفصح هو عن بعضها ضمن طيات كتابه، ككتاب ((تاريخ أفريقيا والمغرب)) لابن الرقيق القيروانى، وجغرافية ابن الجزار المسماة (بنوادر الزمان)(٩).

وتبنى كاربخال أسلوب **السرد التاريخى** لجميع مناطق شمال أفريقيا، وبعض الأجزاء الأخرى من القارة الأفريقية مثل النيجر، وأثيوبيا، ومصر، كما رصد معظم المعارك الحربية التى وقعت حتى عام ١٥٧٤م(١٠).

أما عن **دواعى تأليف** كاربخال **لكتاب أفريقيا**؛ فإن ما ذكره هو فى مقدمة كتابه بروح التعصب يوضح الدافع الحقيقى وراء هذا المؤلف إذ يقول: " لم يكن فى قصدى فى تأليف هذا التاريخ كله إطلاقًا إلا تشجيع الدول الكاثوليكية على حمل السلاح ضد هؤلاء المسلمين الذين يكتسحون بوقاحة مجد المسيحية ولا يفتأون يحاربوننا ويتحينون الفرص لتحطيمنا. لكن سيهسل علينا إهلاكهم أكثر من أن نسترجع منهم أرض المقدس لأننا نعرف الآن قواتهم ...."(١١). ومن هنا يتبين لنا أن كاربخال كان يتبنى هدف بعض دول أوروبا المسيحية في تعقب المسلمين في بلاد المغرب بعد طردهم من الأندلس.

وصدر كتاب أفريقيا لمارمول كربخال باللغة الإسبانية عام ١٥٧٣م فى غرناطة، وقام دابلونكورت (D ablancourt Np) عام ١٦٦٧م بترجمته إلى الفرنسية ونشره فى ثلاثة أجزاء[١٢].

ولعل أهمية هذه الدراسة تعود إلى كونها تتعلق بالأوضاع الاجتماعية لمدينة فاس في ضوء كتاب أحد الرحالة المستشرقين وهو كاربخال. كما أن كتب الرحالة تُعد واحدة من أهم المصادر التاريخية والجغرافية خلال تلك الفترة الزمنية، هذا بالإضافة إلى أن الدراسة رصدت الأوضاع الاجتماعية بأحد أهم مدن المغرب العربى في فترة زمنية سابقة قبل احتدام الصراع الأوروبى الاستعمارى على القارة الأفريقية عامة وعلى شمال أفريقيا خاصة؛ ويمكن اعتبار تلك الفترة ودور كاربخال مقدمة من مقدمات الغزو والاستعمار الأوروبى للعالم العربى والقارة الأفريقية .

من ناحية أخرى حاولت الدراسة كشف الزيف الذى سجله كاربخال عن بعض الأحوال الاجتماعية لمدينة فاس والتي حاول فيها تشويه المجتمع الفاسى، وذلك من خلال مقارنة ما كتبه بما جاء فى كتاب الحسن الوزان وصف أفريقيا والذى سبقه في الكتابة بنحو عقدين من الزمان، وكذلك بما جاء في كتب النوازل[١٣] ومن أهمها، الونشريسى، (المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب) والحسن الزياتى، (الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة)، والتي تُعد أحد المصادر التاريخية لمنطقة المغرب العربى من القرن الرابع عشر وحتى القرن السادس عشر الميلادى.

وعلى العموم فإن كتاب أفريقيا لكاربخال يبقى مع ذلك مفيدًا للباحثين فى جغرافية أفريقيا وتاريخها فى القرن السادس عشر، كذيل مكمل لكتاب الحسن الوزان، لما سجله من أحداث ووصف لمواقع لم يقف عليها غيره.

وستحاول هذه الورقة البحثية تتبع ورصد الأحوال الاجتماعية لمدينة فاس فى ضوء مشاهدات كاربخال للمدينة خلال هذه الفترة، حيث مكث فى المغرب الأقصى قرابة سبعة أعوام، وقد ساعده في تدوين مشاهداته تعلمه اللغة العربية والبربرية؛ لذا رصد الكثير من الجوانب الاجتماعية، ومنها الشرائح الاجتماعية للمجتمع الفاسى، والتفاوت فيما بينهم فى اللباس والمسكن والطعام، وأهم الأسواق والحرف فى فاس خلال القرن السادس عشر، والمنشآت ذات الصبغة والدلالة الاجتماعية

مثل (المساجد– البيمارستانات– الحمامات– المقابر– الفنادق)، وما انتشر داخل المجتمع فى فاس من أعمال السحر والشعوذة وبعض الخرافات، ثم نظام التعليم فى فاس. وستدور محاور هذه الورقة حول مجموعة من النقاط التالية وهى:–

أولًا– الطبقات الاجتماعية واللباس والمسكن فى فاس.

ثانيًا– المنشآت العمرانية الاجتماعية والأسواق والحرف.

ثالثاً– العرافون والسحرة والمشعوذون بفاس.

رابعًا– التعليم فى مدينة فاس.

أولًا- الطبقات الاجتماعية واللباس والمسكن فى فاس:

لقد قُدر عدد سكان فاس فى منتصف القرن السادس عشر بنحو خمسين ألف أسرة فاسية، مما يجعل تقدير إجمالى عدد سكان فاس ما بين ٢٠٠ إلى ٢٥٠ ألف نسمة على اعتبار أن متوسط الأسرة الواحدة من ٤- ٥ أفراد، بينما وصل عدد اليهود تقريباً فى المدينة بنحو أربعة آلاف يهودى، وهذا يدل على الازدهار العمرانى والسكانى لمدينة فاس خلال القرن السادس عشر[١٤].وتكون مجتمع مدينة فاس منذ تأسيها من مجموعة من العناصر لعل أهمها ما يلى:-

١- **البربر**:- قطنت مدينة فاس مجموعة من القبائل ذات الأصول البربرية الفاسية، ومنها قبائل زناتة، وغمارة، وصنهاجة.

٢- **العرب** :- قطن العرب مدينة فاس منذ الهجرات الأندلسية الأولى من قرطبة [١٥]، والتى جاءت إلى فاس عام ٨١٧ م بعد ثورة الربض فى قرطبة. ولقد سكن الأندلسيون الأوائل فى العدوة الجنوبية على الضفة اليمنى لواد فاس وهى العدوة التى حملت اسمهم، أما العنصر القادم من القيروان فقد استوطن العدوة الشمالية على الضفة اليسرى من الواد وسميت باسمهم أيضا[١٦].

٣- **اليهود**:- سكنوا مدينة فاس منذ عهود مبكرة وقدموا إليها من جهات مختلفة وعبر مراحل تاريخية متفرقة، واستطاعوا أن يندمجوا اقتصادياً فى فاس نظرًا لاشتغالهم بالتجارة وبالعديد من الحرف والصناعات، مما جعل لهم حضورًا بين طبقات مجتمع فاس[١٧]. ومع مطلع القرن السادس عشر الميلادى وفد إلى مدينة فاس الكثير من عناصر السكان، ومنهم اليهود الذين أسلموا وكانوا من أهم تجار مدينة فاس، الذين ظلوا أوفياء لتقاليد أسلافهم وللمكانة التى كانوا يحتلونها، وقد امتزجوا حسب الظاهر بالسكان المسلمين من مدينة فاس[١٨].

٤- **الأندلسيون**[١٩] وقد قدموا إلى مدينة فاس كلاجئين بعد سقوط غرناطة وصدور قرارات الطرد خلال القرنين ١٦-١٧ الميلاديين، وهذا ما أدى إلى تضاعف أعداد العنصر الأندلسى داخل المجتمع الفاسى خلال تلك الفترة[٢٠]. ولم يشعر الأندلسيون بالغربة فى فاس نظرًا لتوفر سبل العيش التى اعتادوا عليها، بالإضافة إلى وجود روابط روحيه وعلمية فيما بين بلاد المغرب والأندلس[٢١]،

وخاصة وأن الأندلسيين وجدوا فى فاس الكثير من مظاهر الحضارة الأندلسية التى صنعها أجدادهم؛ فتأقلموا سريعًا بدون عناء وأتوا لتقوية النخبة الفكرية والفنية والتجارية للقاعدة الأندلسية(٢٢).

ومن ناحية أخرى وفدا إلى مدينة فاس أفواجُ من المهاجرين من مدينة تلمسان، كما استقطبت فاس العديد من الهجرات البدوية من سهول المغرب وجباله كما وفدت إلى مدينة فاس لتعميرها القبائل التي اشتغلت بالجندية وأهمها، شراكة، الأوداية، شراردة، وأولاد جامع وأهل سوس(٢٣)، وأهل تافيلات. هذا بالإضافة إلى بعض الأفارقة السود الذين استقروا بالمدينة أيضا (٢٤).

هكذا استقبلت فاس فى القرن السادس عشر ومن قبله العديد من الهجرات والعناصر السكانية التى لم يحدث فيما بينها الانسجام، نظرًا لتسابق كل من هذه العناصر للحصول على المكانة الاقتصادية والاجتماعية المناسبة، مما أدى إلى ظهور التوترات والأزمات بين سكانها فى كثير من الأحيان.

ونظرًا لما شهدته فاس من توافد جل هذه العناصر السكانية إليها، لذا ظهر خلال هذه الفترة مقياسان للتقسيم الطبقى داخل المجتمع الفاسى وهما مقياسا **الثروة والعلم**.

فشمل مقياس الثروة أربعة مستويات **أولها الأغنياء:** وهم أصحاب الثروة فى فاس من الأعيان، وكل من توفرت له الإمكانيات المالية، كالتجار، وملاك الأراضى، ورجال السلطة(٢٥)، **ثانيها التجار** حيث أسهم تطور المعاملات التجارية والنشاط الحرفى فى تنمية دور التاجر، وفى خلق مستويات تجارية(٢٦)، **وثالثها طوائف الحرف** والتى يمثلها المشتغلون بالحرف سواء كانوا مأجورين عمالًا أو أصحاب رؤوس الأموال، كما يندرج تحتها الصناع المبتدئون، وكان هذا القطاع يستوعب أكبر قدر من طبقة العامة داخل المجتمع الفاسى(٢٧). **ورابعها العبيد**، وهؤلاء مثلوا جزءا من تجارة المغرب، ووجُدوا بكثرة فى مدينة فاس وخدموا الفاسيين فى بيوتهم وقصورهم(٢٨).وأما **مقياس العلم** فشمل عدة شرائح منها القضاة، المفتون، الفقهاء، الخطباء، والمحتسبون(٢٩).

وأما عن اللباس والمسكن، فقد رصد كاربخال لباس بعض شرائح المجتمع فى فاس بقوله؛ "فلباس **ملك فاس** بسيطًا جدًا، حتى إنه لا يُظن أنه الملك، لأن الذين يرافقونه يرتدون لباسًا أفخر من لباسه، ولا يضع تاجًا على رأسه لأنه غير مباح له شرعًا "(٣٠). أما لباس **النبلاء والأكابر** فى

فاس" كان أكثر تحضرًا إذ يلبسون قمصانًا من الحرير، أو الجوخ الرفيع قرمزية أو من لون آخر بضفائر وأزرار ذهبية، وأكمام عريضة مفتوحة من الأسفل ومبطنة بقطيفة قرمزية أو دمشقية ، ويضعون على رؤوسهم قلانس أرجوانية يأتى بها إليهم تجار إسبانيا، والبعض منهم يلبس عمامات بيضاء، وينتعلون فى الشتاء أحذية أو أخفافاً من جلد الماعز"[٣١] وثمة اختلاف بين ما ذكره مارمول وحسن الوزان فيما يخص لباس النبلاء فى فاس، فالوزان يقول" وأهل فاس، أعنى الأعيان منهم، أناس محترمون حقاً، يرتدون فى الشتاء ملابس من قماش الصوف المستورد من الخارج، تتكون من سترة ضيقة لها نصف أكمام توضع فوق القميص، وفوقها عباءة واسعة مخيطة من الأمام، ويغطون كل ذلك ببرنس، ويجعلون على رؤوسهم قلنسوة تشبه ما يضعه بعض الناس على رؤوسهم فى إيطاليا ليلاً[٣٢].

أما لباس **التجار** فيلبسون ملابس طويلة سوداء أو زرقاء أو ملونة بلون آخر، منسوجة من الصوف تصل إلى منتصف الساق، والبعض من التجار يلبس قمصانًا من الصوف أو الحرير، أما الصناع وعامة الناس فيرتدون ملابس قصيرة تصل إلى الركبة، وفوقها سترات من الجوخ الأزرق، أو من لون آخر، ويلبسون جميعًا سراويل طويلة من قماش ضيقة تصل إلى العرقوب[٣٣].

يتضح مما رصده كاربخال فى لباس أهل فاس وجود ثمة فوارق فى لباس بعض الطبقات، وتشابه في لباس البعض الآخر، مثل زى الأعيان والأكابر والنبلاء وبعض التجار التى سمحت لهم حالتهم الاقتصادية وهى الأفضل حالًا من الصناع والزراع وباقى طوائف الحرف الأخرى بارتداء ملابس مشابهة لملبس الأعيان. ويعنى هذا بطبيعة الحال أن المستوى المادى كان هو المحدد لطبيعة ومستوى ملابس كل طبقة.

ويظهر هذا جليًا في ملابس **عامة الناس** الذين كانوا يرتدون السترات والبرانس، وهناك من كان لا يملكون ما يشترون به سترات فكانوا يتدثرون بعباءة أو يضعون سترات شبيهة بالمسوح، ويحتذون بأحذية سوداء ذات أزرار أو خيوط وسراويل من قماش أو جوخ[٣٤]، بينما يرتدى **الفقراء** من العامة ثوبًا أبيض من نسيج صوف البلاد الخشن[٣٥].

أما لباس **النساء** الفاسيات ذات الحسب والنسب، فكن إذ خرجن فى الصيف لبسن فساتين بيضاء فاخرة ثمينة منسوجة بالذهب والحرير، وفوقها خمار أو عباءة من قماش مطرز الجوانب، أما فى الشتاء فيلبسن قمصانًا من حرير أو جوخ ملون مطرزة حول العنق، ويضعن على رؤوسهن زينات فاخرة من الذهب والجوهر، وإذا خرجن وخاصة الأندلسيات لبسن سراويل طويلة متموجة جدًا، تبدو منها الساق جميلة، لأن لباسهن لا يصل إلى منتصف الساق ...." ويمكن القول أن لباس الفاسيات خلال هذه النصف الثانى من القرن السادس عشر يكاد يكون نفس زى المورسكيات فى غرناطة(٣٦).

وبهذا يتضح من وصف كاربخال للباس النساء فى فاس أنه تأثر كثيرًا بما شاهده من لباس المورسيكات فى غرناطة، بل إنه تجاوز فى حق الفاسيات بوصف بعضهن بأنهن قليلات العفة شهوانيات. وفى هذا تعدِ صارخ شرفهن، ومبالغة في وصف مجتمع تحكمه الضوابط الإسلامية إلى حدِ بعيد.

أما لباس العامة خارج مدينة فاس فلم يذكر كاربخال فى هذا الصدد سوى سكان جبل زرهون أو زراهانون(٣٧) بقوله " وأهل هذه البلاد أقوياء أشداء، شديدو البياض، تفتخر نساؤهم بجمالهن وزينتهن، ويتحلين بأساور وأقراط من ذهب وفضة. لباسهم من صوف غير رقيق جداً، وتجاراتهم الرئيسية هى الزيت قصد بيعه إلى مدينة فاس"(٣٨). أما الحسن الوزان فرصد لباس العامة فى القرى المجاورة لمدينة فاس بشكل مفصل والتى غفل مارمول عن ذكرها، فيصف الوزان لباس سكان جبل بنى جرير بأنهم فقراء يلبسون الأسمال الحقيرة(٣٩)، ولباس بنى واريتين بقوله" ولكن هندامهم ردئ(٤٠)"، ولباس سكان جبل بنى يوسف " بأنهم فقراء وأكثر رداءة فى لبسهم، ويرجع ذلك لفقر جبلهم، مما انعكس على حياتهم حيث مأكلهم خبز أسود اللون، كريه الرائحة والمذاق، مزعج المنظر، وينابيعهم معكرة الماء(٤١). ويختم وصفه لفقر سكان الجبال المجاورة لفاس بقوله" وهؤلاء الجبليون يعانون من فقر مدقع، ويظهر هذا فى كسائهم(٤٢).

في الوقت نفسه عانى ساكنوا الجبال من قلة المياه، حيث اعتمدوا بشكل كبير على مياه الأمطار، والتي كانت قليلة وفى بعض الأحيان كانت نادرة ؛ وتسجل النوازل معاناة سكان الجبال من ندرة المياه، ولهذا كثرت النزاعات(٤٣) حول الماء بين سكان الجبال وسكان الوديان(٤٤).

ويتبين مما سبق أن تفاوت المستوى المادى لسكان فاس قد أثر بطبيعة الحال في تباين ملابسهم، ومن الطبيعى أن تؤثر تلك الأوضاع على المساكن أيضًا.

وبالنسبة لمساكن فاس، فقد أورد كاربخال إحصاءً لعدد الدور في فاس، وقدرها ب ٨٤,٠٠٠ دارًا(٤٥)، متأثرًا في إحصائه هذا بالرقم الذي أورده الوزان، الذي أشار إلى احتواء فاس على ٨٩,٢٣٦ دارًا(٤٦)، لكنه رفض الرقم الذي أورده الوزان، واعتبره رقماً مبالغ فيه. وللأسف لا نملك مصادر تعين في التحقق من صحة الرقمين، لكننا نميل إلى رأي كاربخال خاصة أن نوازل الزياتي تفصح عن وجود أزمة سكنية في فاس خلال فترة البحث؛ تلك الأزمة انعكست في وقوع عدد من النزاعات والخلافات حول بيع وشراء وكراء المساكن(٤٧).

وحسب وصف كاربخال كان ملك فاس يسكن فى خيام، فخيمة الملك كانت تظهر وكأنها مدينة تحيط بها أسوار بشرفاتها فى دقة متناهية، ولو أنها من قماش حتى ليظن أنها قلعة مربعة ذات أبراج فى زواياها الأربع. وهذه الخيام يحرسها العديد من الحراس ليل نهار(٤٨).

أما عن باقى مساكن مدينة فاس فمعظمها مبنية بالآجر أو الطوب الملصق بالجير، وهى جميلة من الداخل أكثر منها فى الخارج، لأن فيها غرفًا جميلة مبيضة ومزلجة بمربعات صغيرة مرصوصة شديدة الصفاء. كما توجد فى غرف الدار خزانات داخل الجدران وأقواس من جبس شديدة البياض(٤٩). وسقوف بعض هذه الدور مغطاة بالطين المخلوط بالجير والرمل، وبعضها مسقوف بالخشب المتين حتى يسهل نشر الغسيل على سطح الدار والنوم فيه صيفًا(٥٠).ولهذه الدور أفنية محاطة بممرات وأروقة فيها خزانات مصنوعة من خشب الأرز طيب الرائحة(٥١).

وتتألف الدور كلها تقريبًا من طابقين، وفى البعض منها ثلاث طوابق، فى كل طابق شرفات كثيرة الزخرفة تسمح بالمرور تحت السقف من حجرة لأخرى، لأن ساحة الدار مكشوفة والحجرات قائمة فى كل جوانبها، وهى ذات أبواب واسعة وعالية جدًا. وأما مساكن الأغنياء فيجملون بيوتهم

بخزانات فى غاية الظرف مصبوغة على امتداد عرض البيت، يحفظون فيها أثمن الأشياء. وجميع الأروقة فى هذه الدور قائمة على أعمدة من الآجر مكسوة بالزليج إلى ارتفاع يزيد قليلاً عن نصف القامة ، ويُرى فى بعض البيوت أعمدة من رخام، ويبنى بين كل عمود قوسًا يغطى بالزليج. كما يوجد فى كثير من المنازل صهاريج مستطيلة يتراوح عرضها ستة أذرع وطولها يتراوح ما بين عشرة واثنى عشر ذراعاً، وعمقها ستة أشبار وكلها مكسوة بمربعات الزليج، وتبنى فى كل جانب من جوانب الصهريج على طوله، سقايات مزخرفة بنفس الزليج. وتزين بعض هذه النافورات المائية بخصات من المرمر كما هو الحال فى أوروبا(٥٢).

ومن ناحية أخرى اهتم كاربخال برصد مساكن القرى المجاورة التى تقع فى نطاق ممكلة فاس الكبرى، ومنها مساكن خولان(٥٣) فسكانها – كما يروى– قرويون همج، يعيشون فى فاقة من أراض يكترونها من فقيه الجامع الكبير بفاس(٥٤)،أما مساكن قصر فرعون(٥٥) فيفضلون أن يعيشوا متفرقين على سفوح الجبال على أن يقيموا فى المدن(٥٦)، أما مساكن مغيلة(٥٧) فليس لهم سوى دور حقيرة، وأسوار المدينة متهدمة فى مواضع شتى(٥٨).وأما مساكن بنى وراثين(٥٩) فهم يقطنون فى ديار مثل البربر، لا فى خيام مثل غيرهم(٦٠). وسكان تغات(٦١) يقطنون فى ضيعات صغيرة، وكلهم عاملون يذهبون إلى الحقول(٦٢). ورصد الحسن الوزان أيضا مساكن القرى المجاورة لمملكة فاس بصورة أكثر تفصيلا عما ذكره مارمول، فذكر مسكن بنى واريتين بأنها تتألف من بيوت بائسة، ومبانى ريفها كالزرائب من سقوف من قش، أو من لحاء الشجر، بينما منازل بلدة تزرغة فهى قبيحة وسكانها لا يقلون قبحًا عن بيوتهم، أما سكان جبل الزيز فهم رعاع يسكنون فى بيوت مبنية من أعمدة رفيعة مطلية بالطين اللزج ومغطاة بسقف من القش، أما من يمتلكون الماشية فهم أكثر سترًا من الرعاع، حيث يسكنون أكواخًا صغيرة مسقوفة بعيدان القصب(٦٣).

أما طعام العامة من أهل فاس فكانوا يتناولون اللحم الطرى مرتين فى الأسبوع، لكن الأعيان يأكلونه مرتين فى اليوم. أما طريقة معيشة عامة الناس فى فاس فيتناولون ثلاث وجبات فى اليوم، وجبة خفيفة فى الصباح مكونة من خبز وفواكه وحساء سائل من دقيق القمح، ويأخذون فى الشتاء بدل الحساء رغيفًا من حنطة محشواً بلحم مملح، وفى الظهر يتناولون أكلاً خفيفًا كالخبز والسلطة

والجبن والزيتون، وفى المساء يتناولون أشياءً خفيفة كالخبز مع البطيخ أو العنب أو اللبن، لكنهم فى الشتاء يأكلون اللحم المطبوخ مع طعام يسمى الكسكسو، أما طعام علية (أكابر) القوم كشيوخ الأعيان والتجار ورجال الحاشية فإن معيشتهم أفضل من ذلك وأكثر لطفًا، لكن بالمقارنة مع طريقة العيش التى يسلكها نبلاء أوروبا تبدو عيشة الأفارقة بئيسة حقيرة(٦٤).

ولكن هناك عادات وتقاليد مهمة متعلقة بأطعمة أهل فاس طيبة لم يرصدها كاربخال؛ منها تبادل الأهالي والجيران للطعام على سبيل الهدية، فكان كل واحدٍ يأتي بما تيسر من طعام ويهادي به جاره، فالبعض كان يهدي جاره لبنًا، أو فاكهة كالتين مثلاً، أو خبزًا أو زيتًا، أو دجاجًا، أو لحمًا، وكلها عادات رصدتها النوازل المعاصرة لفترة هذا البحث(٦٥).

ومن صور التكافل الاجتماعي في مجتمع فاس فيما يتعلق بالطعام شيوع ظاهرة تبادل الأهالي للأطعمة على سبيل السلف أو الإقراض وخصوصًا بين الجيران، وتلك الظاهرة رصدتها لنا النوازل الفقهية، ومن ذلك سلف الدقيق، وسلف الخبز(٦٦).

ولا نعرف لماذا يصر كاربخال على إخفاء مثل هذه العادات الإيجابية وصور التكافل الاجتماعي في مجتمع فاس، ولا عذر له في هذا وقد أقام فترة ليست بالقصيرة في بلاد المغرب. كما أنه رصد الكثير من العادات السلبية فكان حريُ به أن يرصد مثل هذه الإيجابيات، وهذا ما يهر تحامله على مجتمع فاس في كثير من الأحيان.

ثانياً- المنشئات العمرانية الاجتماعية والأسواق والحرف فى فاس:

يرصد كاربخال عددا كبيرًا من الأبنية والمنشآت الاجتماعية في فاس خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، ولم يكن مبالغًا في وصفه، فهذه الفترة واكبت بداية عهد السعديين الذين وصلوا للحكم في أعقاب الوطاسيين، وقد عانت مدينة فاس من الاضطرابات والحروب وعدم الاستقرار تحت الحكم الوطاسي، ولما جاء السعديون أولوا اهتمامًا بالغًا بإقامة المنشآت العسكرية والدفاعية التي أسهمت في تحقيق الأمن والاستقرار في فاس، وانعكس ذلك على حركة البناء والتشييد حيث استثمر أبناء فاس الفرصة لتعويض ما فقدوه خلال العهد الوطاسي. وتجلت حركة

البناء هذه في الحوالات الحبسية التي تذكر عددا من الحوانيت التي رُممت، وعددا من الدور والحمامات والفنادق التي أعيد بناؤها[٦٧].

وجُدت فى فاس خلال القرن السادس عشر العديد من المنشآت ذات الصبغة الاجتماعية مثل (المساجد– البيمارستانات– الحمامات– المقابر– الفنادق)، حيث وصل عدد **المساجد والجوامع** خلال هذه الفترة نحو سبعمائة مسجد وجامع وزاوية، منها خمسون كبيرة حسنة البناء[٦٨]، لكل منها مؤذن وإمام ومكلف يتعهد بإضاءة المصابيح ليلاً، وبعض القائمين على حراسة الأبواب، ويوجد فى فاس المسجد الكبير ويدعى جامع القرويين، حيث يبلغ محيط دائرته نحو ميل ونصف ميل، وله واحد وثلاثون بابًا[٦٩]، ويدرس فى هذا المسجد الكبير العديد من الفقهاء والمشايخ حيث يلقون دروسًا تتعلق بأمور الدين والشريعة الإسلامية[٧٠]، وتبدأ هذه الدروس بعد صلاة الفجر وتنتهى بعد ساعة من شروق الشمس، كما كانت لبعض المساجد إيرادات موقوفة للإنفاق منها على المساجد وتوزيع الباقى على فقراء فاس[٧١].

وتعد الأوقاف أو الأحباس من مظاهر الحضارة الإسلامية التي أبرزتها كتب النوازل في بلاد المغرب بوجه عام وفي مدينة فاس على وجه التحديد، وقد خصص جزء كبير من هذه الأوقاف لبناء المساجد، ودفع رواتب المعلمين والخطباء والأئمة والمؤذنين والنظار والعمال ممن يحتاج إليهم المسجد[٧٢]. وتلك المسألة تفسر كثرة المساجد والجوامع في فاس، والدور الكبير الذي أسهمت به في المجتمع من وعظ وتدريس بل والنظر في الأمور الدينية والمعاملات اليومية للعامة.

وقد ألحقت بالمساجد بعض المدارس[٧٣] التي اعتمدت على الأوقاف في عقد مجالس علم بل وتوفير مسكن للطلاب ومعلميهم، والإنفاق على طعامهم وما يلزمهم من نفقة فترة إقامتهم، فكانت هناك أحباس للإنفاق على الطلبة المقيمين بتلك المدارس وعلى العاملين بها من أئمة ومدرسين ومؤذنين وأساتذة وبوابين، وتوفير الكتب والمصاحف للطلبة. ويظهر مما أوردته النوازل أن فترة الإقامة بهذه المدارس كانت طويلة فإحدى النوازل تشير إلى ضرورة إخراج من يتجاوز العشر سنوات داخل المدارس الحبسية ولم تظهر نجابته، لأنه يعطل الفائدة المتوخاة من الحبس وهي العكوف على دراسة العلم[٧٤].

وأما عن **البيمارستانات** وهى لا تقل حسناً عن المدارس، والتى أُسس معظمها بفضل الصدقات(الأوقاف)[٧٥]، لكنها ظلت فقيرة محرومة تقريبًا من وسائل العمل[٧٦]، وكانت تستضيف الفقهاء الغرباء وأشراف المدينة[٧٧]، حتى أن المريض المسكين لا يجد فى حجرته سوى طعامه أو من يخدمه إلى أن يموت أو يشفى من مرضه.

وهنا يتبين لنا التناقض الواضح فيما يتعلق بالحديث عن البيمارستانات فكيف نتخيل أن هذه المؤسسات العلاجية المهمة التى اعتمدت على الأوقاف محرومة من وسائل العمل وكيف وهى مؤسسة خيرية تقدم خدماتها فقط للغرباء وأشراف المدينة، خاصة وأنه من المعلوم أن فاعلى الخير ممن تبرعوا بهذه الأوقاف حبسوها لخدمة العامة وكفلوا لها كافة سبل العمل

كما كانت توجد فى بعض البيمارستانات حجرات للمجانين والحمقى، حيث كان يوضعون فيها مقيدون بالسلاسل والأغلال وتوجد حول حجراتهم الحواجز والعوارض الخشبية المتينة. وإذا رأى المكلف بتقديم الطعام للمجانين هياج أحدهم انهال عليه بالضرب المتوالى من عصا يحملها معه دائما لهذا الغرض. ويوجد موظفين فى هذه البيمارستانات كتبه وممرضون وحراس وطباخون وغيرهم ممن يتهمون بالمريض، ويتقاضى كل واحد منهم أجرًا حسنًا[٧٨].

ومن ناحية أخرى كانت توجد فى فاس **الحمامات**، والتى كانت تشكل أهم وسائل الترفيه فى المدينة، يذهب إليها النساء والرجال للاستحمام، هؤلاء فى الصباح وأولئك فى المساء[٧٩]، وبلغت هذه الحمامات نحو مائة حمام جيدة البناء حسنة الصيانة، بعضها صغير وبعضها كبير، وكلها على شكل واحد، وفى كل واحد منها ثلاث حجرات فى خارجها غرف صغيرة مرتفعة قليلاً يصعد إليها بخمس درجات أو ست، حيث يخلع الناس ثيابهم ويتركونها هناك. وفى وسط القاعات صهاريج على شكل أحواض. ويسخن ماء الحمام بالزبل، ويعمل فى الحمامات مجموعة من الغلمان والبغالين يجوبون أرجاء المدينة ليشتروا الزبل من الاصطبلات وينقلوه إلى خارج المدينة، ثم يجعلوه أكداسًا ويتركوه ليجف شهرين أو ثلاثة أشهر ثم يستعمل بعد ذلك كالحطب فى تسخين القاعات وماء الحمامات. وللنساء كذلك حماماتهن الخاصة، إلا أن الكثير منها يستعمل للرجال والنساء، وللرجال أوقات معينة بين الساعة الثالثة والرابعة عصرًا، أو أكثر أو أقل بحسب الفصول،

ويخصص باق اليوم للنساء، فإذا دخلن إلى الحمام مد حبل على عرض الباب للإشعار بذلك حتى لا يدخله رجل. وإذا أراد أحدهم أن يقول شيئًا لزوجته فعليه أن ينادى إحدى مستخدمات الحمام، وهى زنجيات تقومن بمهمة التبليغ.

وكان من عادة سكان المدينة أيضا رجالاً ونساء أن يأكلوا فى الحمامات ويتسلوا فيها غالبًا بمختلف ضروب التسلية، ويغنوا بأعلى أصواتهم. وكانت معظم هذه الحمامات مملوكة للمساجد والمدارس تدر لها دخلًا مرتفعًا يبلغ ما بين مائة ومائة وخمسين مثقالًا(٨٠). وهناك بعض الأوقاف التي خصصت للإنفاق على الحمامات من صيانة ونقل الماء إليها في القواديس، ودفع أجور العاملين فيها(٨١).

ومن ناحية أخرى كانت توجد بفاس **المقابر** وهى نوعان **أولها**، مقابر العامة حيث كانت توجد بظاهر فاس ساحات كثيرة معدة لدفن الموتى خصصها بعض المحسنين ابتغاء مرضاة الله لتكون مقابر سواء على سبيل الهبة أو على سبيل الوقف(٨٢). وكان يوضع على المكان الذى يرقد فيه الميت حجراً طويلاً رقيقاً ذو ظهر مثلث الشكل. أما الأشراف وذوو الحيثيات فكانت توضع على قبورهم لوحة من رخام عند الرأس وأخرى عند القدمين، تنقش عليهما أبيات شعرية تسلى عن هذا الانتقال الصعب المرير من الحياة إلى الممات، ويذكر تحتها اسم الميت وأسلافه ويوم الوفاة وسنتها. **وثانيها** مقابر الملوك حيث كانت توجد فى خارج مدينة فاس إلى جهة الشمال قصر فوق تل مرتفع، وهناك كانت توجد أضرحة بعض ملوك بنى مرين، وهى فى غاية الزينة، شواهدها من مرمر مزخرف بنقوش ومنمق بألوان زاهية، حتى إن هذه الأضرحة لتملأ نفوس المتأملين فيها بالإعجاب(٨٣).

كما وجُدت فى فاس **الفنادق**، وهنا لابد أن نفرق بين نوعين من الفنادق، الأول: الفنادق التي أعدت ليسكنها الغرباء بمقابل مادي، أما الثاني فهي الفنادق التي خصصت لاستقبال الغرباء بدون مقابل واستندت في نفقاتها على أموال الأحباس، وبعض هذه الفنادق كان ملحقًا بالمساجد خدمة للغرباء وأبناء السبيل(٨٤)، والبعض الآخر كان مستقلاً حيث وردت نازلة بشأن قيام رجل أثناء مرضه بحبس دخل فندقين له لخدمة ثغر من ثغور الجهاد(٨٥).

وعمومًا فإن الفنادق التي يحدثنا عنها كاربخال هي فنادق النوع الأول؛ وقد أحصاها بنحو مائتى فندق أعدت لاستقبال الغرباء، وهى كبيرة حسنة البناء مبانيها فى غاية الإتقان، بعضها فسيح جدًا، كالتى تقع بجوار الجامع الكبير(٨٦). وتتألف كلها من ثلاث طبقات. لكن على الرغم من حسن هذه الفنادق وسعتها فإنها تمثل سكنًا كريهًا، لخلوها من الأسرة والفرش. فصاحب الفندق يقدم للمكترى غطاء وحصيراً ينام عليه، وإذا أراد هذا أن يأكل فعليه أن يشترى أغذية ويقدمها للطبخ. ويسكن بعض هذه الفنادق الرجال المترملون من أهل المدينة من الذين لا بيوت لهم ولا أقارب، فيشغلون غرفًا مفردة أو ينزل اثنان فى غرفة ويعدون بأنفسهم فراشهم ويصنعون طعامهم بأيديهم(٨٧).

وكان هناك من يذهب إلى هذه الفنادق بغرض السُكر والرزيلة مع بعض الباغيات المرتزقات، وهو ما يصفة مارمول بقوله " وسائر الفنادق الأخرى ملاجئ للشياطين ترتكب فيها آلاف المعاصى، بكامل الإباحة وبدون عقاب، لدرجة أنه يسمح لأصحاب الفنادق بالخروج بزى النساء محلقين اللحى متمنطقين كالنساء مرققين صوتهم عند الكلام ومقلدين النساء لتحريض الرجال على فسق بشع. ويباح لهم اتخاذ وسطاء عموميين، وبيع الخمر، وإيواء النساء والصبيان، كما هو جار فى المواخير المخصصة للفجور. وأغرب من ذلك أن ممثلى العدالة لا يجرؤون على الذهاب إليها، وأن الشرطة لا يلقون القبض على أى احد هناك، بحيث إنها أصبحت ملجأ اللصوص والقوادين والقتلة وجميع فجار المدينة"(٨٨). لكن غالبية سكان أهل فاس من أناسًا من أشرف خلق الله بأفريقيا كلها ولا علاقة لهم إطلاقا مع أمثال هؤلاء المنحلين أو أرباب الفنادق الذين لا يخالطون إلا الأراذل من أسفل الأسافل، ولا يكلمهم أى فقيه أو تاجر أو صانع محتشم، ويمنعون من الدخول إلى الفنادق القريبة من الجامع، وإلى الأسواق والبيوت الخاصة. ويمنعون بالأحرى من الإشراف على الفنادق المجاورة للجامع التى يسكنها فى الغالب تجار من درجة سامية (٨٩).كما كان يوجد بفاس سجنان أحدهما للمدنيين والآخر للجنح(٩٠).

ويتبين مما سبق فيما يخص الفنادق، وجود كثير من المبالغات بل الإساءات لمجتمع فاس في طرح كاربخال فيما يخص الفنادق، بينما جاء عرض الحسن الوزان لهذه المسألة موضوعى والتي تتحدث عن أن أهل فاس من أشرف خلق الله وتبرز الإيجابيات، وأن قلة من أهل فاس هم

من كانوا يرتكبون هذه الأفعال. وهذا يوضح مدى تحامل كاربخال وأنه قدم صورة غير حقيقة عن المجتمع الفاسى.

وفيما يتعلق بمسألة بيع الخمر، فقد شاعت هذه الظاهرة بالفعل في بلاد المغرب عامة وأكدها الزياتي (عاش في النصف الثاني من القرن ١٦، وتوفي عام ١٦٤٦م) في نوازله[٩١]. كما إن ظاهرة شرب الخمر شاعت في المناسبات الاجتماعية وخاصة في الأفراح، ويظهر ذلك من نازلة عرضت على الفقيه محمد بن الحسن بن عرضون (توفي عام ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م) [٩٢].

لكن هذه النوازل أكدت على أن غالبية من يبيعون الخمر كانوا من أهل الذمة، وهو ما جعل فقهاء المغرب يفتون بأنه لا ذمة لهم طالما ارتكبوا مثل هذه المنكرات[٩٣]، وتلك مسألة لم يتطرق إليها كاربخال، ونظنه متعمدًا في إحجامه عن ذكر هذا الخبر.

ويتبين لنا مما سبق كثرة المؤسسات والمنشآت الاجتماعية في مدينة فاس، وأنها أسهمت بدور اجتماعي وديني وثقافي مهم انتفع به أهل فاس، ساعد على ذلك الأوقاف والأحباس الكثيرة التي خُصصت لهذا الغرض، فضلاً عما أولاه فقهاء فاس من عناية بتتبع أحوال الأوقاف والعناية بها، والتأكد من أداء الدور الذي خصص لأجله الحبس على أكمل وجه، بل إن الفقهاء كانوا يفتون بأنه " من أخذ حبسًا على عمل لم يقم به وجب عليه رد الحبس"[٩٤].

وأما عن الأسواق والحرف فى فاس، فاشتغل أهلها بالعديد من الحرف والصناعات، وخاصة التى تتعلق بالطعام والشراب والملبس باعتبارها من الضروريات التى لا غنى للإنسان عنها. فتحدث عن هذه الحرف من (الطحانين، الفرانين، الخبازين، اللبانين، الساقين، الصباغين، النساجين،القطانين،العطارين،النحاسين،الجلادين،الخياطين،الأسكافين،الدباغين،القصارين،الدلالين،الـ سراجين،الحصرين، والحمالين)[٩٥]، وغيرهم من الحرف والصناعات الأخرى التى أشتهر بها أهل فاس خلال القرن السادس عشر الميلادى[٩٦]. وارتبطت بهذه الحرف بطبعيه الحال أسواق الأحياء التى يجتمع فيها التجار من جميع الأصناف، أو بأسواق الحبوب، والزيت، والمواشى وغيرها من الأسواق[٩٧].

ومن أهم أسواق فاس القيصرية وهى عبارة عن مكان مسور يقع وسط المدينة، حيث دكاكين التجارة ومعظم ثروات فاس، لها اثنا عشر باباً كبيراً وسلاسل كبيرة من الحديد تستعمل كحواجز لمنع دخول المرء إليها راكبًا. وتضم خمسة عشر زقاقًا للدكاكين، أهمها زقاق الأسكافين والقطانين الذين يصنعون أشرطة وشرابات تعلق بالركابات وعلى صدور الخيل مع عُدة السروج من نفس المادة، وهناك أيضا ما يزيد على مائة دكان للتجار الذين يبيعون جميع أنواع النسيج من الحرير والصوف للنساء، كما كانت توجد عدة دكاكين تباع فيها أقمشة رقيقة من الصوف، وربطات من الحرير الخام، وجل هؤلاء التجار من مسلمى الأندلس وبلنسية[٩٨].

كما كان يوجد زقاق للدلالين، حيث يقيدون فيه كل ما يباع، كما يحمل الدلالون السلعة من دكان إلى آخر، ويوجد عدة دكاكين للخياطين والقصارين، ويقيم الرثاثون بائعو الملابس المستعملة فى زقاق آخر، وكل ذلك فى مكان مسور يقوم بغلقه كل ليله رجل مكلف بذلك[٩٩].

وعلى الجانب الآخر عند الخروج من القيصرية من جهة الباب المفضى إلى الشمال كان يوجد زقاق جميل يسمى العطارين، ويشتمل على مائة وسبعين دكانًا فى كلا الجانبين. له مدخلان يغلقان كل ليلة، فضلاً عن إقامة الحراسة عليه[١٠٠]، ومن بين هذه الدكاكين عدة دكاكين للعشابين الذين يبيعون مراهم وأدوية للمرضى. كما كان لجميع الصناع والبزازين حى منعزل، ويوجد حول الجامع الكبير ثمانون مكتبًا للعدول (كتاب التوثيق)، وأمام الباب الآخر للجامع المتجه نحو الغرب، ساحة كبرى كانت تباع فيها الفواكه، وبالقرب منها أربعون دكانًا للبزازين والشماعين، وعدد آخر من الدكاكين لباقات الزهر التى اعتاد كل واحد منهم أن يحملها فى يده، كما يباع الليمون الحلو والحامض، وجميع أنواع المشروبات، وتقابلها دكاكين أخرى مليئة بقلل كبيرة مغلقة باتقان تباع فيها اللبن الطرى، واللبن الحامض والزبدة الطرية، وأكثر من ثلاثين أخرى يباع فيها القطن المغزول وغير المغزول[١٠١].

وأما على اليمين يوجد زقاق آخر يباع فيه القنب، وفيه عدة دكاكين للسراجين والحصريين. وقبالتها عدة دكاكين أخرى تباع فيها أكياس النقود وأحزمة من الجلد، وعلى مسافة غير بعيدة توجد دكاكين يباع فيها الملح والجبص، وأخرى لبيع الزجاج، كما توجد بالقرب من هذه الدكاكين ساحة

الحمالين وسائقى العجلات لنقل البضائع. وفى وسط هذه الساحة مكان مسور تباع فيه جميع أنواع الأعشاب والخضر وحوله أكثر من مائة دكان يباع فيه حلوى العسل، وبجوارها عدة دكاكين يباع فيها اللحم الطرى والسمك المطبوخ، وحلويات وفطائر بالسمن تطهى فى إناء من خزف، وأمامها أكثر من خمسين دكانًا يباع فيها الزيت، والسمن، والعسل، والجبن، والزيتون(١٠٢).

وبالقرب من هناك أربعون دكانًا للجزارين يباع فيها اللحم بالوزن لدى خروجه من المجزرة الواقعة على النهر. ويوجد عدد آخر من الدكاكين المتفرقة عبر المدينة يباع فيها بالتقسيط الزيت، والعسل، والسمن، والتوابل والصابون. وأمام هذه الساحة المذكورة آنفًا ساحة أخرى، يباع فيها القمح، الشعير، والتين،والشمع بالجملة وبالتقسيط(١٠٣). وبالقرب من هذه الساحة توجد ساحة الملابس الداخلية على شكل رواق كبير ذى أربعة أبواب، تباع فيها الملابس والقماش ويقام فيها يوميًا سوقًا يستمر من الزوال إلى الساعة الثانية يزدحم فيها جمهور من النساء يأتين لبيع أو شراء الملابس أو القماش. وهناك زقاق آخر يبدأ من الباب الغربى للجامع الكبير ويؤدى إلى باب المدينة المفضى إلى فاس الجديدة، وهذا الزقاق ملئ بالساحات والدكاكين(١٠٤).

ومن جهة الشرق يوجد زقاق قريب من العطارين، فيه أكثر من أربعين دكانًا لصانعى الإبر، وعلى بعد يسير من هذا المكان ساحة صغيرة فيها عدة دكاكين متماسة يباع فيها الدقيق، والصابون، والمكنسات، وأشياء أخرى للأشغال المنزلية، وبالقرب من الدكاكين التى يباع فيها القطن زقاق صغير عارض تباع فيه الخيام وسراديق البادية، وبالقرب منها ستة عشر دكانًا تباع فيها طيورًا حية فى أقفاص وأخرى مذبوحة، وفى هذا المكان منزل كبير يباع فيه الزنوج من الجنسين كل مساء، وبالقرب من هناك صانعوا الأخفاف والنعال المزخرفة المغشاة بالجلد، والتى ينتعلها السكان عادة عندما تمطر السماء أو تكون الطرق موحلة. وأمام هذه الدكاكين اثنا عشر دكانًا لموريسكيين من غرناطة أو بلنسية يصنعون أسلحة نارية ، وبعدها خمسون دكانًا لا يصنع فيها سوى المكانس من سعف النخيل وتباع فى المدينة كلها.

وعلى مسافة بعيدة توجد ساحة كبيرة أخرى مليئة بالدكاكين للمصنوعات الحديدية، حيث يصنع الحدادون والنجارون المحاريث وعجلات العربات والطواحين، والرماح والسيوف، وبعدهم يأتى الصباغون والبيطريون(١٠٥).

ومن ناحية أخرى كانت توجد **نقابات للحرف** بفاس مفصول بعضها عن بعض، وأهمها تلك التى كانت توجد حول جامع القرويين أو بالقرب منه(١٠٦). ولكل طائفة من هذه الحرف لها أحياء تسكن بها، وكانت تسمى بأرباض الحرف، وهذا ما أكده بروفنسال بوجود تنظيم للحرف فى فاس خلال هذه الفترة بقوله" أن أساسها عقد تأسيسى يحدده العرف، ويسلم به الداخلون فى الجماعة ويقسمون على احترامه"، وكان يشار لأهل الحرف بأرباب الصنائع، أو أرباب الطوائف (١٠٧). وكانت أهل كل حرفة تجمعهم طائفة واحدة مستقلة عن غيرها، لها أصولها ونظمها الخاصة بها، وكان على رأس كل طائفة منها رئيس من أهلها يسمى "الأمين". ولقد أكد المحتسب(١٠٨) أن يكون لكل حرفة أو صناعة أمين يقوم بحل الخلافات التى تقوم بين أهل الحرفة وعملائهم، وأن يبلغ المحتسب مطالب أبناء حرفته فيما يخص تكاليف السلعة وتحديد ثمن بيعها، كما كان يرجع إليه عند الاختلاف فى أمر من أمور الحرفة. وفى بعض الأحيان يقوم بدور المعلم لأهل حرفته فيعلمهم طرقها وأسرارها، كما كان يوجد فى كل حرفة أو مهنة المعلم، العامل المدرب والمتعلم الصبى(١٠٩).

ثالثاً- العرافون والسحرة والمشعوذون فى فاس:

كانت توجد فى فاس ثلاثة أصناف من **العرافين**، فالصنف الأول يتألف من عرافين يمارسون فن ضرب الرمل(١١٠)، أما الصنف الثانى من العرافين فهم الذين يجعلون الماء فى قدر لامع، ويرمون فيه قطرة زيت فيصير شفافًا، ويزعم العرافون أنهم يرون فيه كما يرون فى المرآة جماعة من الشياطين القادمين، بعضهم خلف بعض، كأنهم كتائب جيش تعسكر وتضرب الخيام، وعندما يرى العرّاف أنهم قد استراحوا يطلب منهم ما يود معرفته فيجيبونه بإشارات باليد أو العين.

وفى بعض الأحيان يضع هؤلاء العرافون أحيانًا القدر بين يدى طفل عمره ثمانية أعوام أو تسعة، ويسألونه هل رأى الجنى الفلانى أو غيره فيجيبهم الطفل الساذج بنعم، لكنهم لا يدعونه يتكلم

وحده. ويثق الكثير من البسطاء ومحدودى الثقافة بهؤلاء العرافين لدرجة أنهم ينفقون عندهم أموالًا طائلة(١١١).

أما الصنف الثالث من العرافين فهم نساء يوهمن العامة أنهن يرتبطن بصداقة مع بعض الشياطين من أنواع مختلفة. وعندما يطلب منهن أن يتنبأن بشئ من الأشياء يتطيبن بعطور مختلفة الروائح فيدخل فيهن المتكلم الذى دعونه حسب زعمهن، ويغيرن حينئذ من أصواتهن ليوهمن أنه المتكلم بفمهن. والشخص الذى أتى لشئ يريد أن يعرفه، سواء كان رجلاً أو أمراة، يطلب ذلك من الروحانى بكثير من الاعتبار والضراعة. فإذا حصل على الجواب ترك هدية للشيطان وذهب إلى حال سبيله (١١٢).

أما **السحرة** فى فاس فكانوا يعتبرون أنفسهم قادرين تمامًا على إنقاذ من اعتراهم مس من الشيطان، لسبب واحد هو أنهم يوفقون أحيانًا فى ذلك، وإذا لم يوفقوا زعموا أن الشيطان كافر أو أن الأمر يتعلق بروح سماوية، ويكون التعزيم بالطريقة التالية: يكتبون بعض الحروف، ثم يرسمون دوائر، ويخطون على يد المجنون أو جبينه بعض الإشارات، ويعطرونه بمختلف العطور وبعد ذلك يشرع الساحر فى الرقية، ويسأل الروحانى كيف دخل الجسم، من أين أتى، ومن هو، وما اسمه، ويأمره فى الأخير بالذهاب. وهناك صنف آخر من السحرة يعملون وفق قاعدة تدعى الزايرجة أى مخاطبة الأرواح، وهم لا يربطون عملياتهم بنصوص، بل يعتبرونها جزءًا من العلوم الطبيعية. والحقيقة أن هؤلاء القوم يعرفون كيفية الإجابة عن كل سؤال يطرح عليهم، غير أن القواعد الزايرجية متناهية الصعوبة، ويجب أن يكون المرء منجمًا ممتازًا ورياضيًا ليعرف طريقة استعمالها(١١٣).

كما كان يوجد فى فاس مجموعة من **المشعوذين** وهم أناس لا قيمة لهم(١١٤)، ينشدون فى الساحات قصائد وأغنيات، ويلعبون بالدف والرباب والقيثار وغيرها من الآلات، ويبيعون للناس أوراقًا صغيرة كتبت عليها كلمات وعبارات فى زعمهم للشفاء من كل داء، كما أن هناك صنف آخر من المشعوذين فهؤلاء يجوبون فاس وهم يرقصون القرده ويحملون الأفاعى فى أيديهم وحول أعناقهم، ويقومون أيضا بأشكال من خط الرمل ويخبرون النساء بما سيكون فى المستقبل (١١٥).

رابعاً- التعليم فى فاس:

كان يغلب على صفة التعليم فى فاس خلال القرن السادس عشر حفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، وتعلم مبادئ النحو بالإضافة إلى تعلم الأمور الفقهية والشرعية، ولهذا أُنشئت المدارس التى تهتم بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ القراءة والكتابة(١١٦). ولقد بلغ عدد المدارس فى هذا الشأن نحو مائتى مدرسة (كتّاب) وكان يلتحق بها الأطفال الصغار الراغبين فى تعلم القراءة، وكانت فى كل مدرسة قاعة كبيرة بمدرجات(مصاطب) تستعمل كمقاعد للأطفال، وهؤلاء الأطفال يتم تحفيظهم القرآن الكريم والقراءة والكتابة فى ألواح كبيرة من الخشب يكتب عليها التلاميذ(١١٧).

وكان درس كل يوم عبارة عن آية من القرآن، فيختمون القرآن فى سنتين أو ثلاث ويحفظونه عن ظهر قلب خلال هذه المدة أو بعد سبع سنوات على أقصى تقدير. ويتقاضى المحفظون (المعلمون) أجرًا زهيدًا، لكن عندما يصل الطفل إلى بعض سور القرآن يكون على أبيه أن يقدم للمعلم هدية، وعندما يختم الطفل القرآن ويحفظه كاملاً يقيم الأب وليمة كبيرة يدعو إليها جميع التلاميذ، ويلبس ابنه لباسًا فخمًا، وكأنه ابن أمير ويركب على متن جواد أصيل ثمين يعيره إياه أمير المدينة كما يعيره اللباس أيضًا. كما يركب الأطفال الآخرون متون الخيل ويصحبونه إلى قاعة للاحتفال به، ثم تكون الوليمة التى يحضرها أصدقاء الوالد، ويقدم كل واحد منهم هدية للمعلم، كما يقدم للطفل المحتفل به كسوة جديدة(١١٨).

وبعد حفظ القرآن الكريم ينتقل الأطفال إلى دراسة النحو من خلال حفظ ألفية ابن مالك والتى جمعت قواعد النحو، ففى كل يوم يعرضون قطعة منها على أستاذهم وفى منازلهم يقرأون الشروح وعليه لا يرون أى كتاب فى المدارس. ويقضون قرابة سنتين فى دراسة هذا النحو والبعض منهم يقضى أربع سنوات(١١٩).

على الجانب الآخر يذكر كاربخال نقلاً عن الحسن الوزان، وجود **مدارس أخرى** بفاس غير مدارس تحفيظ القرآن بقوله" فكانت توجد بفاس إحدى عشرة مدرسة للطلاب جيدة البناء كثيرة الزخرف بالزليج والخشب المنقوش، بعضها مبلط بالرخام، وبعضها بالخزف، فأفنيتها كبيرة وأروقتها

وغرفها العديدة الملبسة بالطلاء الجيد أرضيتها مزلجة والكرسى الذى تلقى منه الدروس، مرصع بالأبنوس والعاج وتحتوى كل مدرسة على عدة حجر"، ويوجد فى كل مدرسة أساتذة لمختلف العلوم، فهذا يلقى درسه فى الصباح، وذاك فى المساء، وكل طالب من طلبة المدرسة فى الزمن الماضى كان يعفى من مصاريفه ولباسه مدة سبع سنوات، حيث كان يوجد طلبة داخليون فى هذه المدارس ينفق عليهم مثلما هو الشأن فى أوروبا أما الآن فلم يبق له غير السكن. حيث خرب عدد كبير من الأملاك والبساتين التى كانت محاصيلها مخصصة لهذا الغرض بسبب الحروب. كما أن ملوك فاس أخذوا معظم موارد هذه المدارس ولم يتركوا إلا ما هو ضرورى للأساتذة كما لم يبق للطلبة سوى الغرفة والدروس(١٢٠).

وكانت تدرس فى الصنف الثانى من هذه المدارس كما ذكر أكيسار(١٢١) علوم التفسير، الحديث، الأصول، الحساب، الكلام، التصوف، اللغة، النحو والصرف، البلاغة، التوحيد، الفلك ، الطب، التاريخ والجغرافيا، القضاء، والأدب(١٢٢).

خاتمة

لقد خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج لعل أهمها ما يلى:-

يعُد كتاب أفريقيا للرحالة مارمول كاربخال واحدًا من المصادر التاريخية المهمة للباحثين والدراسين فى تاريخ أفريقيا خلال القرن السادس عشر الميلادى، لما اشتمل على معلومات مهمة فيما يخص الأحوال الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية للأماكن التى تحدث عنه اكاربخال فى كتابه. وإن كان قد اعتمد بشكل ليس بالقليل على ما ذكره سابقه الرحالة الحسن الوزان ونقل منه فصولاً كثيرة حرفًا بحرف.

رصد كاربخال الكثير من التفاصيل عن الأحوال الاجتماعية لمدينة فاس، منها المجتمع الفاسى وطبقاته وشرائحه الاجتماعية المختلفة، سواء السكان الأصليين لمدينة فاس، أو من وفدوا إليها خلال الفترات الزمنية المتفاوتة، وكذلك التفاوت الطبقى الواضح بين فئات المجتمع الفاسى خلال القرن السادس عشر.

من ناحية أخرى أفرد كاربخال مساحة كبيرة للحرف والصناعات والأسواق فى مدينة فاس بشكل دقيق ومفصل، والتى أوضحت الكثير من الأمور، أهمهما التباين الطبقى الموجود داخل المجمتع الفاسى حتى داخل الحرف والصناعات، والتنافس الشديد بين أبناء كل حرفة أو طائفة من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن من العيش الكريم من خلال العمل والاجتهاد، وأن كل حرفة أو طائفة كان لها نقيب يشرف عليها ويدافع عن أبناء حرفته، كما تحدث مارمول عن جميع الأسواق التى كانت موجودة فى مدينة فاس وتقسيماتها بشكل مفصل.

على الجانب الآخر رصد كاربخال بعض المظاهر الاجتماعية للمجتمع الفاسى، ومنها لباس شرائح المجتمع الفاسى خلال القرن السادس عشر، بداية من الملك والنبلاء والأعيان، والتجار، والعامة، ثم النساء الفاسيات بمختلف رتبهن، وجاء وصفه متأثراً بما شاهده من لباس المورسيكين من قبل بالأندلس. ثم انتقل بحديثة، عن المسكن فى مدينة فاس بداية من الملك إلى مسكن العامة، وكذلك مساكن الفاسيين فى القرى المجاورة، ثم اختتم حديثه عن أنواع الطعام داخل فاس.

كما سجل كاربخال مشاهداته عن المنشآت التى يمكن تسميتها المنشآت ذات الصبغة الاجتماعية فى فاس مثل المساجد، والبيمارستانات والحمامات والفنادق والمقابر، بشكل مفصل وآثار تلك المنشأت على المستويين الاقتصادى والاجتماعى خلال القرن السادس عشر الميلادى، بالإضافة إلى ما انتشر داخل المجتمع الفاسى من ظواهر سلبية كأعمال السحر والشعوذة وضرب الرمل، وتفشى هذه السلوكيات بين الكثير من فئات المجتمع فى فاس خلال هذه الفترة بشكل كبير، على الرغم من الاهتمام بالعلوم الشرعية ووجود الكثير من أبناء فاس الحافظين للقرآن الكريم.

وبالإضافة إلى ذلك وصف كاربخال نظام التعليم فى فاس، والذى كان يهتم بشكل كبير بالعلوم الشرعية، وفى مقدمتها حفظ القرآن الكريم وألفية ابن مالك، إلى جانب بعض العلوم الأخرى وإن كان معظمها مرتبطًا بشكل وثيق بالعلوم الشرعية مثل التفسير، الحديث، التصوف، والتوحيد، إلى جانب بعض العلوم الأخرى مثل الفلك، الحساب، الأدب، والتاريخ والجغرافيا، والطب.

وفى النهاية يمكن أن نخلص إلى أن ما رصده مارمول كاربخال فى الجوانب الاجتماعية فى بلاد المغرب الأقصى عامة، وفاس خاصة لا يمكن أن يأخذ كأمر مسلم به ، وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار شخصية الرحالة الإسباني كاربخال المتعصبة للمسيحية والراغبة فى الانتقام من العرب المسلمين الذين احتلوا بلاده شبة جزيرة إيبيريا (الأندلس) لبضعة عقود فى تصوره هو، بالإضافة إلى طبيعية قدومه فى الأساس إلى بلاد المغرب العربى فى مهمة كنسية استخباراتية.

كما يُعد الرحالة كاربخال واحداً من الكثير من الرحالة الغربيين الذين أرسلوا من قبل ملوكهم أو حكوماتهم للحصول على معلومات عن بلاد الشرق في مختلف الميادين بدءا من عاداتهم وتقاليدهم وملبسهم ومنازلهم ووصولًا إلى طريقة الحكم وخلافاتهم وحروبهم واقتصادهم، وذلك تمهيدًا لاستعمارهم من قبل الغرب الأوروبى. وكانت هذه المعلومات مهمّة للغاية للقادة الأوروبيين حتّى يكونوا على علم ودراية بكلّ ما يجري فوق الأرض الّتي ستطؤها أقدامهم.

ولذا كان لزامًا علينا نحن جمهور الباحثين أن نأخذ ما كتبه مارمول بعين الحذر والحيطة ومقارنة ما كتبه من خلال مطالعة ما كُتب عن هذه الفترة سواء من السابقين أو المعاصرين أو اللاحقين، مع تحرى الحذر والحيطة.

الحواشى والهوامش:

([1]) Susan Gilson Miller, Attilio Petruccioli and Mauro Bertagnin, Inscribing Minority Space in the Islamic City: The Jewish Quarter of Fez (1438-1912), Journal of the Society of Architectural Historians, Vol. 60, No. 3 (Sep., 2001),p.313.

(2) AL QANTIR – Monografía y Documentos sobre la Historia de Tarifa, Documento 34,Luis de Mármol y Carvajal: *Descripción general de África, sus guerras y vicisitudes, desde la fundación del mahometismo hasta el año 1571*,p.1-2

وأنظر أيضًا:

سالم بوتدارة، الصحراء الجزائرية فى كتابات مارمول كاربخال، مجلة الحوار المتوسطى، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية فى حضارة المغرب، جامعة الجيلالى اليابس سيدى بلعباس الجزائر، عدد٧، ديسمبر ٢٠١٤،ص ٢٩٩.

(3) Laura Lara Martínez, María Lara Martínez, Clásicos Mínimos. Descripción general de Áfricay origen del nombre del continente según León el Africanoy, Luis del Mármol Carvajal", Colección: Clásicos Mínimos Fecha de Publicación: marzo 2005,P.4-5

(٤) مارمول كاربخال، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجى وآخرون، الجزء الأول، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، ١٩٨٤، ص ٥.

([5]) Anthony M. Puglisi , La historia del rebelión y castigo de los moriscos de Luis del Mármol Carvajal, University of Iowa,2008,p.143-144.

(٦) مارمول كاربخال، المصدر السابق،ج١، ص ٥-٦.

(٧) سالم بوتدارة، مرجع سابق، ص ٣٠٠.

(٨) مميون أم العيد، احتقار الأوروبيين للمغاربة .... عندما ندم ليون الأفريقى لزيارة دادس، جريدة Hespress هسبريس المغربية، ٢٣ ديسمبر، ٢٠١٩، ص٤.

(٩) سالم بوتدارة، مرجع سابق، ص ٣٠٠.

(١٠) نفسه.

(١١) مارمول كاربخال، المصدر السابق،ج١، ص ١٢.

(12) Laura Lara Martínez, María Lara Martínez, Op. Cit, p.5

(١٣) النوازل جمع نازلة، وهى تعنى من حيث الاصطلاح اللغوى : الشديدة التي تنزل بالقوم، وهى الشدة من شدائد الدهر تنزل بالناس (ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت ط٣، ١٤١٤هـ،مادة نزل،ج١١، ص ٦٥٩)، أما من حيث الاصطلاح الفقهى فتعنى مشكلة عقائدية أو أخلاقية أو حياتية، يصطدم بها المسلم في حياته اليومية، فيحاول إيجاد حل لها، يتلاءم مع طبيعة المجتمع، ويستند في الوقت نفسه إلى القواعد الشرعية، وهى الاحكام الصادرة عن الفقهاء في الوقائع الجزئية (محمد المختار ولد السعد، الفتاوى والتاريخ دراسة لمظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية في موريتانيا من خلال فقه النوازل، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط١، ٢٠٠٠، ص ٢٩).

(١٤) روجى ترونو، مدينة فاس من خلال رسائل كلينار نيكولا فى القرن السادس عشر، عرض محمد حمود، جامعة محمد الخامس، المعهد الجامعى للبحث العلمى، مجلد ١٧، عدد ٣٢، ١٩٨١،ص٢٩١.

(١٥) هاجر مجموعة من الأندلسيين العرب إلى المغرب فى هجرتهم الأولى فى عهد الدولة الإدريسية يوم تأسست مدينة فاس بعد ثورة الربض بقرطبة، فجاءوا إلى مدينة فاس وبنوا بها شطر المدينة(عدوة الأندلس) ونقلوا إليها ثقافتهم وحضاراتهم وعبقريتهم. (الحسن السائح، الثقافة المغربية فى القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادى، الرسالة التربوية، وزارة التربية الوطنية، اللجنة الثقافية، المغرب، عدد ١٣، ١٩٨٢، ص٤٥).

(١٦) نفسية الذهبى، المجتمع الفاسى خلال العهد السعدى الترابية والصراع، مجلة أمل، مجلد ٦، عدد ١٨، ١٩٩٩، ص٦٠.

(17) Gerber, Jan satlow: Jewish Society in Fez Studies in Communal and Economic life, PhD, Columbia University, 1972, p.1-2.

(18) Susan Gilson Miller, Attilio Petruccioli and Mauro Bertagnin: Inscribing Minority Space in the Islamic City: The Jewish Quarter of Fez (1438-1912), p.313.

(١٩) هاجر الأندلسيون للمرة الثانية بعد سقوط غرناطة، حيث تم جلاؤهم فى جماعات كبرى، وتفرقوا فى سيل من المهاجرين إلى المغرب فرادى وجماعات واندمجوا فى بلاد المغرب التى كانت احد العدوتين(الحسن السائح، مرجع سابق، ص ٥٤).

([20]) Andrew C. Hess,The Moriscos: An Ottoman Fifth Column in Sixteenth-Century Spain, The American Historical Review, Vol. 74, No. 1 (Oct., 1968),p.1-2.

(٢١) الحسن السائح، مرجع سابق، ص ٤٦.

(٢٢) روجى لوطورنو، فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجى، محمد الأخضر، الجزء الأول، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٩٢، ص ١١١-١١٢.

(٢٣) نفسية الذهبى، مرجع سابق، ص ٦١.

(٢٤) روجى لوطورنو، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٢٥) نفسية الذهبى، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٢٦) الحسن الوزان، مصد سابق، الجزء الأول، ص ٢٤٠-٢٤١.

(٢٧) نوال طلال الشريف، حرف وصناعات فاس من خلال كتاب وصف أفريقيا للحسن الوزان، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة (مصر)، عدد ٤٤،يناير ٢٠٠٩، ص ٥٣٠-٥٣١.

(٢٨) نفسية الذهبى، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٢٩) الحسن الوزان، مصدر سابق، الجزء الأول، ص٢٤٩-٢٥٠.

(٣٠) مارمول كاربخال، مصدر سابق،ج٢، ص ١٧٣.

(٣١) مارمول كاربخال، مصدر سابق،ج٢، ص ١٧٥-١٧٦.

(٣٢) الحسن الوزران، مصدر سابق، ج١، ص ٢٥١-٢٥٢.

(٣٣) مارمول كاربخال، مصدر سابق،ج٢، ص١٧٥.

(٣٤) مارمول كاربخال، مصدر سابق،ج٢، ص ١٧٦.

(٣٥) الحسن الوزان، مصدر سابق،ج١، ص٢٥٢.

(٣٦) روجى لوطورنو، فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجى، محمد الأخضر، الجزء الثانى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، لبنان،١٩٩٢، ص٧١٨.

(٣٧) جبل كبير جميل بهيج، يبدأ هذا الجبل فى سهل سايس، على بعد ثلاثة فراسخ ونصف من مدينة فاس، ويمتد على مسافة عشرة فراسخ شطر الغرب، بينما يبلغ عرضه فى بعض الأماكن ثلاثة فراسخ ونصف.(مارمول كربخال، مصدر سابق،ج٢، ص١٨١)

(٣٨) مارمول كاربخال، ص١٨١.

(٣٩) الحسن الوزان، مصدر سابق،ج١، ص٣٣٢.

(٤٠) الحسن الوزان، مصدرسابق،ج١، ص ٢٩٩.

(٤١) سلطانه ملامح مويشى الرويلى، العامة فى مملكة فاس من خلال كتاب وصف أفريقيا للحسن الوزان، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، عدد ٨٨، فبراير ٢٠١٦، ص ٤٥٩.

(٤٢) الحسن الوزان، مصدر سابق،ج١، ص٣٤١.

(٤٣) من تلك النزاعات وقوع نزاع حول قسمة الماء الهابط على الوادي وسئل في هذه النازلة الفقيه أبو عبد الله الحفار، وهو أندلسي سكن مدينة فاس (وتوفي سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٩م). وللمزيد حول هذه النزاعات، انظر: الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٩٨١، ج٥، ص ١٢، وما بعدها.

(٤٤) أبو محمد عبد العزيز بن الحسن الزياتي: الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة، دراسة وتحقيق غنية عطوي، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، الجزائر، ٢٠١٣، ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(٤٥) مارمول كاربخال، ج١، ص ٨٢.

(٤٦) الحسن الوزان، ج١، ص ١٧٩، ١٨٠.

(٤٧) أبو محمد عبد العزيز بن الحسن الزياتي: الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة، دراسة وتحقيق غنية عطوي، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، الجزائر، ٢٠١٣، ص ٢٢١، ٢٨٨؛ أبو عيسى المهدي الوزاني: مصدر سابق، ج٦، ص ٦١٨.

(٤٨) مارمول كاربخال، مصدر سابق،ج٢،ص ١٧٣.

(٤٩) مارمول كاربخال، مصدر سابق،ج٢، ص ١٤٥.

(٥٠) الحسن الوزان، مصدر سابق، ج١، ص ٢٢٢.

(٥١) مارمول كاربخال، مصدر سابق،ج٢، ص ١٤٦.

(٥٢) الحسن الوزان، مصدر سابق، ج١، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٥٣) تقع على بعد ثلاثة فراسخ من فاس فى جهة الجنوب، وهى مدينة على ضفاف نهر سبو(مارمول، مصدر سابق، ج٢، ص١٨٠)

(٥٤) مارمول كاربخال، ص ١٨٠

(٥٥) توجد على بعد ثلاثة فراسخ من فاس وليلى،والذى اطلق عليها هذا الاسم مؤرخ عربى باعتبار أن أسسها هو فرعون ملك مصر، وأن كانت رواية ضعيفة (مارمول كربخال، مصدر سابق،ج٢، ص ١٨٢)

(٥٦) مارمول كاربخال، ص ١٨٣.

(٥٧) تقع على قمة الجبل المطل من جهة الشرق على فاس (مارمول، مصدر سابق،ج٢، ص ١٨٤)

(٥٨) مارمول كاربخال، ص ١٨٤.

(٥٩) تقع على بعد سبعة فراسخ من فاس (مارمول كربخال، مصدر سابق، ص ١٨٥)

(٦٠) مارمول كربخال، ص ١٨٥

(٦١) جبل طويل وضيق يقع على بعد فرسخين من فاس فى ناحية الغرب (مارمول كربخال، مصدر سابق، ص١٨٦)

(٦٢) مارمول كاربخال، مصدر سابق،ج٢، ص ١٨٦.

(٦٣) الحسن الوزان، مصدر سابق،ج١، ص ص ٢٩٨-٣٦٣.

(٦٤) الحسن الوزان مصدر سابق،ج١، ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٦٥) أبو محمد عبد العزيز بن الحسن الزياتي: الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة، دراسة وتحقيق غنية عطوي، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، الجزائر، ٢٠١٣، ص ٢٧، ٢٤٦، ٢٤٧.

(٦٦) سئل في تلك النازلة حول مدى شرعية تلك المبادلات في الأطعمة، الفقيه أبو الحسين أحمد بن محمد بن السراج (المتوفى عام ٨٤٨هـ/١٤٤٥م) انظر: الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج٥، ص ص ١٨- ٢٠.

(٦٧) محمد مزين: مساهمة السعديين في عمران فاس: محاولة استقراء لبعض المصادر: النوازل الفقهية والحوالات الحبسية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، عدد ٤، ٥، ١٩٨١، ص ٢٦١، ٢٦٢.

(٦٨) هشام الجعادى، المغرب والمغاربة خلال عهد السلطان عبد الله، قراءة فى كتاب الاستعباد فى مملكة فاس لماركوس بيرغ، مجلة ليكسوس، عدد ٢٨، المغرب، ٢٠١٨، ص٨٧.

(٦٩) الحسن الوزان، مصدر سابق،ج١، ص٢٢٣-٢٢٤.

(٧٠) روجى ترونو، مدينة فاس من خلال رسائل كلينار نيكولا فى القرن السادس عشر،مجلد ١٧، عدد٣٢، جامعة الملك محمد الخامس، المعهد الجامعى للبحث العلمى، ١٩٨١، ص ٢٩٣

(٧١) الحسن الوزان، مصدر سابق،ج١ ص ٢٢٥.

(٧٢) الونشريسي، مصدر سابق،ج٧ ص ٥.

(٧٣) أنشئت هذه المدارس لحل مشكلة أفصحت عنها النوازل وهي مشكلة تعليم الصبيان في المساجد وتأثير ذلك على أداء الصلوات؛ فأفتى الفقهاء بعدم جواز ذلك، وكان الحل في إنشاء بعض المدارس وإلحاقها بالمساجد. انظر الونشريسي، مصدر سابق،ج٧ ص ٣٦.

(٧٤) الونشريسي، مصدر سابق،ج٧ ص ١٧، ٣٧.

(٧٥) يظهر أن الوزان وكاربخال قد جانبهما الصواب في اختيار بعض المصطلحات، ومنها الصدقات وهم يقصدون بذلك الأوقاف التي يبدو وأنهما لا يعرفا عنها الكثير، وهى أحد المظاهر الراقية للحضارة الإسلامية.

(٧٦) الحسن الوزان، مصدر سابق،الجزء الأول، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٧٧) مارمول كاربخال، مصدر سابق، ج٢، ض ٢٨٣.

(٧٨) الحسن الوزان، مصدر سابق، ج١، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٧٩) مارمول كاربخال، مصدر سابق، ص ١٤٧.

(٨٠) الحسن الوزان، مصدر سابق، ج١ ص ٢٢٩-٢٣٠

(٨١) الونشريسي، مصدر سابق،ج٧ ص ١١.

(٨٢) الونشريسي، مصدر سابق،ج٧ ص١٥٠، ٤٥٧؛ الحسن الوزان، مصدر سابق،ج١، ص ٢٨٠.

(٨٣) الحسن الوزان، مصدر سابق،ج١، ص ٢٨٠.

(٨٤) الونشريسي، مصدر سابق،ج٧ ص ٥٧.

(٨٥) الونشريسي، مصدر سابق،ج٧ ص ٤٦٦.

(٨٦) مارمول كربخال، مصدر سابق،ج٢ ص ١٤٧.

(٨٧) الحسن الوزان، مصدر سابق،ج١ ص ٢٣١-٢٣٢.

(٨٨) مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص ١٤٧-١٤٨.

(٨٩) الحسن الوزان، مصدر سابق،ج١ ص، ٢٣٢-٢٣٣

(٩٠) مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص١٦٤.

(٩١) أبو محمد عبد العزيز بن الحسن الزياتي: الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة، دراسة وتحقيق غنية عطوي، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، الجزائر، ٢٠١٣، ص ١١٣، ١١٤.

(٩٢) أبو عيسى المهدي الوزاني: النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى، قابله وصححه على النسخة الأصلية الأستاذ عمر بن عباد، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٩٩٧، ج٣، ص ٥٥٦.

(٩٣) أبو محمد عبد العزيز بن الحسن الزياتي: الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة، دراسة وتحقيق غنية عطوي، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، الجزائر، ٢٠١٣، ص ١١٣، ١١٤.

(٩٤) الونشريسي، مصدر سابق،ج٧ ص ١٢، ١٣.

(٩٥) مارمول كاربخال، مصدر سابق، ج٢، ص ص ١٤٨-١٥٢.

(٩٦) لمزيد من التفاصيل عن الحرف والصناعات فى فاس خلال القرن السادس عشر الميلادى، أنظر نوال طلال الشريف، ص ص ٥٠٥-٥٣٠.

(٩٧) روجى لوطورنو، مرجع سابق، ص١١٤.

(٩٨) مارمول كاربخال، مصدر سابق،ج٢،ص ١٤٨-١٤٩.

(٩٩) نفسه، ص١٤٩.

(١٠٠) الحسن الوزان، مصدر سابق، الجزء الأول، ص ٢٤٢.

(١٠١) مارمول كاربخال، مصدر سابق،ج٢، ص ١٥٠-١٥١.

(١٠٢) مارمول كاربخال،ج٢، ص ١٥١.

(١٠٣) الحسن الوزان، مصدر سابق، الجزء الأول، ص ٢٣٧.

(١٠٤) مارمول كاربخال،ج٢، ص ١٥٢.

(١٠٥) مارمول كاربخال،ج٢، ص ١٥٣.

(١٠٦) الحسن الوزان، مصدر سابق، الجزء الأول، ص ٢٣٣.

(١٠٧) نوال طلال الشريف، مرجع سابق، ص ٥٣١.

(١٠٨) كانت من الوظائف المهمة فى السوق فى فاس، فالمحتسب هو الذى يسعر الأطعمة ويراقب الموازين والمكاييل، له محكمته الصغيرة على حدة يصدر فيها أحكامه، ويختار أعظم شخصية فى المدينة للقيام بهذه المهمة (مارمول كربخال، مصدر سابق،ج٢، ص ١٥١).

(١٠٩) نوال طلال الشريف، مرجع سابق، ص ٥٣١-٥٣٢.

(١١٠) سلطانة ملامح، مرجع سابق، ص ٤٦٢.

(١١١) الحسن الوزان، مصدر سابق، ج١، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(١١٢) الحسن الوزان، مصدر سابق، ج١، ص ٢٦٣.

(١١٣) الحسن الوزان، مصدر سابق، ج١، ص ٢٦٤-٢٦٥

(١١٤) سلطانة ملامح، مرجع سابق، ص ٤٦٢.

(١١٥) الحسن الوزان، مصدر سابق، ج١، ص ٢٧٦.

(١١٦) جهاد بوحجر، فاطمة حوايج، مدينة فاس وعلاقاتها بإفريقيا جنوب الصحراء مابين القرنين ٨-١٥م، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماستر فى التاريخ،كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجيلالى بونعامة بخميس مليانة، الجزائر، ٢٠١٦، ص ص ٧٤- ٧٦.

(١١٧) الحسن الوزان، مصدر سابق، ج١، ص ٢٦١.

(١١٨) نفسه.

(١١٩) روجى ترونو، مدينة فاس من خلال رسائل كلينار نيكولا فى القرن السادس عشر، عرض محمد حمود، مجلد ١٧، عدد ٣٢، جامعة محمد الخامس، المعهد الجامعى للبحث العلمى، ١٩٨١،ص ٢٩٢.

(١٢٠) الحسن الوزان، مصدر سابق،ج١، ص ص ٢٢٥-٢٢٧. مارمول كاربخال،ج٢، ص ١٤٦

(١٢١) هو رحالة بلجيكى زار مدينة فاس عام ١٥٤٠م، وكتب مذكرات عن فاس، ومن بينها المدارس والطلاب والتعليم فى فاس

(١٢٢) حسن السائح، مرجع سابق، ص ٤٢.